المقامات والأحوال في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

• أ. بن أحمد إيمان (جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان)

الملخص:

يبدأ الصوفي عادة بسلوك هذا الطريق بشعوره برغبة ملحة تستولي على قلبه ، فتبعث فيه نحو تذوق الإيمان بالوجدان، وعدم الوقوف عند حدود التصديق ، أو الإيمان التقليدي الذي حصل عليه بالتوارث و التلقين و التعلم،و الإستدلالات العقلية و المنطقية ، و تأخذ هذه الرغبة بالإزدياد بمقدار صفاء روحه، و استعداد نفسه إلى الرقي الروحي ، فيمتلك هذه النفس الحنين و الشوق إلى معرفة خالقها، معرفة ذوقية لا نقلية و لا عقلية، و يغلب أن يساور الصوفي في حالته هذه الشكوك ، و أوهام خفية في ما يتعلق بالأمور الدينية ، و بعض المعتقدات دون أن يجد من عقله دليلا كافيا لحل هذه المعضلات، و الخروج من ظلمات الحيرة التي جاءته عن طريق الظنون و الشكوك ، فيلجأ بعدها إلى أحد المرشدين من مشايخ الصوفية الذين يسيرون في طريق الحق.

الكلمات المفتاحية : المقامات ، الأحوال ، المجاهدات ، السالك ، الشيخ

Abstract :

The mystic man usually begins his way with persistence feelings which dominates his heart, it sends him out to taste the faith inside, not standing on the ratification border or the traditional faith which he has got through inheritance, indoctrination, learning, mental and logical inferences. This desire is increased by the magnitude of his spirit purity, and his readiness to the spiritual ascension. As a result, this spirit gains the longing and nostalgia to know its creator, a gustative knowledge, neither transcribed nor mental. The mystic tends to suffer from doubts and illusions concerning the religious things, and some beliefs without finding a proof from his mind to resolve these dilemmas, and to get out from the darkness of confusion which came through doubts. So, he turns to one of the guides from Sufi Sheikhs who walks on the right way.

Keywords: makamat, conditions, mujahideen, salik, sheikh

تمهيد:

إن الطريق الصوفي ، طريق ديني قلبي و ليس طريقا فلسفيا عقليا ، يعتمد على رياضة النفس و مجاهدتها، و تصفية الوجدان ،و التخلي عن كل الرذائل و التحلي بكل الفضائل للوصول إلى حالة الجذب أو حالة الإشراق، و هي حالة معرفة الله عن طريق الذوق و المكاشفة، فإذا وصل الصوفي إلى غايته كان دائم الحضور مع الله و دائم الشهود لله، يدرك الله في كل شيء، ويسمعه في كل شيء و يستطيع كل إنسان أن يصل إلى هذه المرتبة من السمو الروحي إذا استطاع أن يسلك طريقها، وهذه الرحلة الصوفية يسمونها "سلوكا"، و الصوفي الذي يسعى إلى الله بهذه الطريقة يسمى "سالكا"و الرحلة التي يقطعها الصوفي هي الطريق ،وهي مراحل يعلو بعضها بعضا مركبة من أحوال و مقامات(بركات،م، 1990: 62) .حيث ينتقل السالك فيها من مقام إلى مقام ومن حال إلى حال خلال عبور هذا الطريق الصوفي الذي أشبه برحلة يسعى السالك لا إلى البحث عن ربه ، بل إلى رؤيته و مشاهدته و الفناء فيه (بدير ، ف ، 99:1983).

-مقامات و أحوال الأمير عبد القادر:

المقامات جمع مقام وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك ، وقد عقد ابن قتيبة فصلا في المجلد الثاني من عيون الأخبار سماه : "مقامات الزهاد عند الخلفاء و الملوك" (مبارك،ز،372:2006).

أما الصوفية فالمقام عندهم هي تلك المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدا في إطارها ، حتى يهيئ الله سبحانه و تعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثاني لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وذلك كمنزلة " التوبة" الذي يهيئ لمنزلة " الورع" وهذه الأخيرة تهيئ إلى منزلة " الزهد" ، و هكذا حتى يصل الإنسان إلى منزلة المحبة ، و إلى منزل الرضي و هذه المنازل لابد لها من جهاد و تزكية ، و لذلك يقولون عنها أنها مكتسبة ، إلا أنها اجتهاد في الطاعة ، و مواصلة في التسامي في تحقيق العبودية لله.

ويقول في هذا الصدد الإمام أبو نصر السراج الطوسي عن المقامات: «و المقامات مثل التوبة، و الورع و الزهد، و الفقر، و الصبر و الرضي، و التوكل و غير ذلك»(الطوسي،أ،66:1914).

ويقول أيضا الإمام القشيري عن المقامات :« و المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته ، أي بنزوله فيه، و بما اكتسب له من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب و مقاساة تكلف فمقام كل أحد : موضع إقامته عن ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له وشرطه: ألا يرتقي من مقام إلى آخر: ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل ، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، و كذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد»(محمود،ع،50:1988).

أما الأحوال فإنها النسمات الروحية التي تهب على السالك، فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ثم تمر تاركة عطرا، تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجه و ذلك مثل الأنس بالله.

ويؤكد في هذا الصدد الإمام أبو نصر السراج الطوسي عن الأحوال قائلا :« أما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار».

وحكي كذلك الجنيد عن الحال فقال :« الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم »(محمود،ع،49:1988).

وفي هذا السياق يفرق الغزالي بين المقام و الحال فيقول :« يسمى الوصف مقاما إذا ثبت و أقام ، و إنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال و هكذا كل صفات القلب تتقسم هذه الأقسام ، فالذي هو غير ثابت يسمى حالا ، لأنه يحول على القرب ، وهذا جاء في كل وصف من أوصاف القلب» (الغزالي،أ،1957:139).

وفي الحقيقة يمكن القول أن الأحوال و المقامات ، وإن دلتا على شيء ، فإنما تدلنا كيف أن مبتداها و منتهاها إنما يتمثل في الجانب العملي الوجداني القلبي ، و هذا الجانب لا علاقة له بالبرهان بمعناه الفلسفي فهي جوانب عملية (بركات،م، 1990: 67).

وعليه فإن المتتبع لكتاب " اللمع " لسراج الطوسي يجد أن المؤلف قد ذكر أن المقامات التي يمر بها الصوفي سبعة و هي : التوبة ، الورع ، الزهد ، الفقر، الصبر و التوكل ثم الرضا .

و أول **مقام** نشير له هو مقام التوبة.

-التوبة: أجمع الصوفية على أن التوبة أول مقام من المقامات التي ينبغي على السالك المنقطع إلى الله أن يطلبه ثم يتخطاه إلى ما بعده، فهي الأساس لكل المقامات التي تليها، و في هذا الشأن يقول الطوسي أنها :« الرجوع من كل شيء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم »(الطوسي،أ،1914:72). أي هي العمل وفقا للأوامر و النواهي الإلهية ،

وعلى ضوء هذا فإن للتوبة مقدمات و علامات ثم ثمرات ، أما مقدماتها فهي انتباه القلب على غفلته و ندمه على ما ارتكب من آثام و معاصي و غفلته عن الحق ،و أصحابها البعد عن الشرور و الآثام ، وأما ثمرتها الرجوع إلى الله و محبته وما يتبع ذلك من دخول العبد في رحمة الله و رضاه و الخروج من المعاصي و الذنوب وابتعادها عن المرء(بدير،ف، 1983:106).

-الورع: و المقصود بهذا المقام عند الصوفية أن يتقى الإنسان الله في كل أفعاله، أي على المرء أن يراعي الله في سلوكه و أن يدرك تمام الإدراك أن الله عالم مطلع على كل فعل يقوم به، ولقد قال القشيري:«أن الورع هو ترك الشبهات » (محمود،ع،1996:238) ،أي أن كل أمر من الأمور التي تحوم حوله من الشبهات ينبغي على المرء أن يبتعد عنه، وفي هذا السياق قد ذهب بعض الصوفية إلى أن الورع يعني ترك شؤون الدنيا و الإهتمام بشؤون الآخرة ، حيث يشغل المرء حينئذ قلبه بالله فحسب(السيد،ف،1985:140).

-الزهد: يعتبر هو الأب الشرعي للتصوف ، ومن غير الممكن أن يوجد التصوف إلا إذا سبقته حركة الزهد ، فالزهد هو المعرفة الضرورية التي لابد منها لقيام التصوف و نهضته ، و عندنا أنه لا يختلف إثنان عاقلان على أن الزهد شرط أساسي و هام للتصوف ، و أن الصوفية جميعا يجمعون على هذا ، و في هذا الشأن يشير الطوسي في بيان أهمية الزهد أنه أساس الأحوال الرضية و المراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، و الزهد في الدنيا رأس كل خير و طاعة . بمعنى أن الزهد هو ترك لذائذ الدنيا الفانية طمعا بلذائذ الآخرة الخالدة ، لذا كان الزهد عند بعضهم أفضل من الفقر ، لأن الفقر عادم للشيء اضطرارا ، و الزهد تارك للشيء اختيارا (السيد،ف،1985:141).

-الفقر:عند الصوفية هو مقام شريف ، وينقسم إلى ثلاث طبقات : فمنهم من لا يملك شيئا ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئا ، ولا ينتظر من أحد شيئا ، وإن أعطى شيئا لم يأخذ وهذا مقام المقربين ، ومنهم من لا يملك شيئا ولا يسأل أحدا ولا يطلب ولا يعرض ، وإن أعطى شيئا من غير مسألة أخذ ، ومنهم من لا يملك شيئا و إذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بإنبساطه إليه(مبارك،ز،2012:382).

ومن ثمة فإن الفقر الصوفي لا يعني انعدام الملكية فقط بل يتضمن انعدام الرغبة في الأمور الدنيوية، ونفض اليد من المشاركة في الملكيات الدنيوية ، والرغبة في الله على أنه الغاية الوحيدة المرغوب فيها(السيد،ف،141:1985).

-**الصبر**: أما عن مقام الخامس الذي هو مقام الصبر ، و الذي يقتضيه الفقر ، لأن الفقر يتطلب من الإنسان تضحيات كثيرة، منها ما هو متعلق بالنفس ، ومنها ما هو متعلق بالبدن ، كما أنه لا يستطيع المرء أن يتحمل هذه التضحيات بنفس راضية و بإرادة لا تلين إلا إذا كان صابرا ، و الصبر بلا شك مقام من المقامات التي يصل إليها الصوفي بجهده و جلده من ناحية ، وبتوفيق الله إياه من ناحية أخرى ،وعلى هذا الأساس يقول الجنيد :

« الصبر حمل المؤمن لله تعالى حتى تنقبض أوقات المكروه»(بدير،ف، 117:1983) .

-**أما التوكل**: فهو استسلام السالك استسلاما تاما لمشيئة الله، وقد أثر الصوفية تأثيرا قويا في الإسلام ، عن طريق قولهم بالتوكل ،حتى طبعوه بطابعه ، وهو ما يسمى بالإستسلام ، أو الجبر الإسلامي(السيد،ف،142:1985).

وقد عرفه ذو النون المصري فقال عنه أنه : « ترك تدبير النفس و الإنخلاع من الحول و القوة»(بدير،ف، 119:1983).

-**الرضا**:إن الرضا هي باب الله الأعظم و جنة الدنيا، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل ، ومن ثمة فإن هذا المقام يحتاج إلى رياضة شديدة ، لأن الرضا لا يكون إلا بعد تطهير القلب من الوساوس النفسية (مبارك،ز،381:2012).

وعليه يمكن القول أن الرضا عند الصوفيين ليس مقاما من جملة المقامات التي يبلغها الصوفي بكسبه و جهده و إنما هو في رأيهم حال أو هبة من الله يهبه المتوكلين عليه و المخلصين في عبادته.وقال في هذا الشأن أبو الحسن النوري :« أن الرضا هو سرور القلب بمر القضاء»(محمود،ع،84:1988).

أما الأحوال : فهي عند الصوفيين لها معان ترد على القلب ، من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب ، مثل الطرب و الحزن ، و البسط و الشوق.

وصاحب الحال مترق ، عن حاله ينتقل من حال إلى حال إذ: « الأحوال كإسمها ، يعني أنها كما تحل بالقلب تزول في الوقت» وهذا بالنسبة للقشيري. و أما معنى الأحوال عند الطوسي فهو «ما يحل بالقلب أو تحل به القلوب ، من صفاء الأذكار»(محمود،ع،193:1996).

وعليه فإن الأحوال تنزل من لدن الله إلى القلب فلا يستطيع الإنسان لها هدفا، ولا يقدر أن يحتفظ بها فوق ما أراده الله، فهي تحل في قلبه، و تزول عنه كما يريد الحق.

ومن ثمة فهي في نظر الطوسي عشر : المراقبة ، القرب ، المحبة و الخوف ، الرجاء ، الشوق ، الإنس ، الطمأنينة و المشاهدة و اليقين(السيد،ف،143:1985).

-**المراقبة**:من أشرف أحوال المراقبة أن تعبد لله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، أو أن تراقب الله وتسأله أن يرعاك، فإنه لا يكل خاصته في جميع أحوالهم إلى نفوسهم(مبارك،ز،383:2012)، ومن ثمة فالمراقبة نوع من تركيز الفكر و التيقظ، بحيث لا تجد وساوس الشيطان إلى القلب سبيلا، و لا تتطرق إليه الأفكار الأثيمة فهي تجعله يشعر بقرب الله منه ، وبقربه من الله.

وقال الجنيد في هذا السياق :« إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه»»(محمود،ع،86:1996).

-**المحبة:** تعتبر المحبة عند الصوفية حالا من الأحوال التي تمنح للمرء و توهب له من الله وهو على طريق التصوف ذلك أن المقامات التي يتخطاها الصوفي درجة فدرجة ، لا يمكن أن يعبرها السالك أو المريد إلا إذا كان الله قد منحه حال المحبة ، فالمحبة هنا فضلا عن أنها مكافأة للصوفي من عند الله ، فإنها تعد أيضا باعثا له على أن يتحرك نحو المحبوب، وباعثا له على أن ينفض عن نفسه شوائب العالم المادي ، وفي هذا الشأن يقول الجنيد : « المحبة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب»(بدير،ف، 125:1983).

-**الخوف:** حال تقابل المحبة ، فإن القرب إلى اللهو النظر إليه ، يبعثان المحبة في النفس ، كما يبعثان الخوف الناجم عن رهبة الله و عظمته و جلاله، ومن ثم فليس الخوف الصوفي نفورا ، وإنما هو لجوء إلى الله ، من الله نفسه.

-**الرجاء:** حيث قال النبي -صلى الله عليه و سلم -:« ولو وزن خوف المؤمن و رجاؤه لا اعتدلا». و الرجاء هو تعلق النفس بالمحبوب، الذي يسعى المتصوف في سبيل الوصول إليه، إنه المحبة الواثقة(السيد،ف،144:1985).

-**الطمأنينة:** إن الأنس بالله يقتضي الطمأنينة ، و ضروب الطمأنينة العوام الذين إذا ذكروا ربهم اطمأنوا إلى ذكرهم له ، فحظهم منه هو الإستجابة للدعوات بإتساع الرزق ودفع الآفات ، وطمأنينة الخواص الذين يرضون بقضاء الله و يصبرون على بلائه ،و طمأنينة خواص الخواص وهم الذين علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إلا إليه هيبة وتعظيما ، لأنه ليس له غاية تدرك و ليس كمثله شيء.

و الطمأنينة تقتضي **المشاهدة** : وهي وصل بين رؤية القلوب و رؤية العيان ، وتتمثل في مشاهدة الأشياء بأعين الفكر ، و أشرف أحوالها أن تشاهد قلوب العارفين مشاهدة تثبيت فيكونوا حاضرين غائبين ، و غائبين حاضرين على انفراد الحق في الغيبة و الحضور ، فيشاهدوه ظاهرا و باطنا و آخرا و أولا.

والمشاهدة تقتضي حال اليقين أيضا ، واليقين هو ارتفاع الشك و ليس لزياداته نهاية ،وكلما تفقه المريدون في الدين ازدادوا يقينا إلى يقين ، ونهاية اليقين تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شيء و ريب(مبارك،ز،387:2012).

ومن ثمة يمكن القول أن حال المشاهدة هي حال شريفة لا يتحقق بها إلا من يقومون بالمجاهدات الصوفية، فيتحقق لهم نوع من اليقين عن طريق الذوق و الوجدان (بركات،م،75:1990).

وبعد التعرف على مقامات و أحوال الصوفيين لابد من الإنتقال إلى مقامات و أحوال الأمير عبد القادر ، أو كما يسميها بطريق الحق ، التي تبدأ بالهجرة التي تمثل له الأساس الأول قائلا : « الهجرة إلى الله قلبية وهي الأساس الأول ، و الأمر الذي عليه المعول، وهي بحصول الزاجر الإلهي ، و العزوف عما كان عليه من المخالفات للأوامر الإلهية ، والهجرة إلى رسوله هي المقصد الثاني للدلالة ، وتعريف سلوك طرق المطلوب ،وهي هجرة جسمانية ، وكما كانت الهجرة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم- واجبة قبل الفتح ، فتح مكة ، فهي اليوم باقية لورثة أحواله و أسراره ، الدالين على الله تعالى ، الداعين إلى معرفته »(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 1967:437،185).

و عليه قد يتوهم متوهم أن السالك سائر إلى الله في مسافة محسوسة ، والوصول إلى الله هو وصول محسوس، ومن هنا لا يصح إطلاق السير إلى الله تعالى إلا بنوع من المجاز ، فإذا استطاع السالك السائر في ميادين النفوس ، قطع تلك العقبات المعنوية ، يصل إلى العلم بالله تعالى ، فيصح أن يقال : سار إلى الله ، إذا ليس هناك من الشيء المحسوس يسير فيه السالك حتى يقطعه ، و إنما هو سير معنوي في مجالات معنوية ، وهي النفوس التي يكون سير السالك فيها و قطعها كناية عن تبديل صفاتها البهيمية بالصفات الإلهية ، وقد اعتبر الأمير أن النفس مطيعة السالك في سيره إلى الله تعالى ،مؤكدا أنه : « لولا وجود النفس ما سار سائر إلى حضرة الحق ولا وصل إليها ، فهي الحجاب على العبد ، وهي موصلة إلى ربه ، ووسيلته إليه ، فالسفر الروحي لا يكون إلا بمفارقته النفس الأمارة بالسوء ، ومزايلة الإيمان العلي»(بركات،م،1990:68).

وعليه فإنه مادام الناس متفاوتين في إدراكهم لأنفسهم في نظر الأمير عبد القادر ، فإنهم متفاوتون في معرفتهم لربهم ، بما لا يكاد ينحصر ، ولا يدخل تحت قياس:« ففي كل نوع من أنواع الهدى ، أشخاص لا يكادون ينحصرون إلا للخالق تعالى فناقص ، وكامل و أكمل ، وما بين ذلك»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 1967:259،118).

كما يشير الأمير كذلك في حديثه عن الأحوال و المقامات ، بأنه لا يهتم بتصنيفها و تبويبها والحديث عنها حديثا نظريا فلسفيا كما يتحدث عنها المؤرخون و المصنفون ، ولكنه يتحدث عن الأحوال و المقامات التي خبرها بنفسه، و عاشها و عانى من تجربته معها ، معاناة المجرب ، ومارسها في حياته تطبيقا عمليا ، أكثر منه قولا نظريا(السيد،ف،1985:148).

1-**مقامات الأمير**:وتبدأ بلمحة موجزة عن مقام التوبة الذي اعتبره الأمير في كتابه المواقف هو الأساس لسلوك الطريق، و المفتاح للوصول لمقام التحقيق، فمن أعطيه أعطى الوصول، ومن حرمه حرم الوصول ، كما قال بعض السادة :« ما حرموا الوصول إلا بتضييع الأصول»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 1967:459،197). ،وأول مقام هو:

- **التوكل:** عند الأمير فهو ليس إلا الثقة و الطمأنينة ، لا ترك الأسباب مع الشك و الاضطراب، فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء ، ولو كان ترك السبب و الحركة توكلا للزم إذا وضع الخبز بين يدي هذا المتوكل أن لا يتناوله و يرفعه إلى فيه ، فإن هذا سبب و حركة لوصول الخبز إلى بطنه ، وإذا وضع الخبز في فيه يلزمه أن لا يمضغه و لا يحرك لسانا ولا غيره ، فإنها كلها أسباب لوصول الرزق إلى البطن(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 1967:405،165).

ومن ثمة فقد اختلف الناس في مفهومهم لإرتباط التوكل بالسبب، وهم على ثلاثة أقسام : متسبب صرف نظره مقصور على السبب و قوته و ضعفه فهو أعمى، ومتوكل صرف معرض عن الأسباب ظاهرا و باطنا ، وهو صاحب حال لا يقتدي به ولا يحتج عليه،ومتسبب بظاهره ، متوكل بباطنه ، يده في السبب، وقلبه متعلق بخلق السبب ، ظاهر لظاهر، وباطن لباطن،وهذا هو الكامل الناظر بعينين،من هنا يتوضح لنا أن التوكل عند الأمير هو مقام المتسبب ظاهريا،و المتوكل باطنيا هو أن يكون ظاهره يوحي بتعلقه بالأسباب ، وباطنه القلبي متعلقا بخالق الأسباب ورب الأسباب. لذا فقد دعا الأمير عبد القادر إلى إثبات الأسباب من « حيث أثبتها الحق - تعالى- امتثالا للأوامر وإتباعا للحكمة ،ولا تعتمد عليها من حيث أنها أغيار للحق تعالى ، وشاهد وجه الحق فيها ، فلا بد من الأسباب وجودا و الغيبة عنها شهود»(السيد،ف،149:1985).

وعلى ضوء هذا الفهم لمقام التوكل يمكن القول أنه إذا أحكم السالك عدة مقامات ، كان مخلصا في توبته و صادقا في توكله و منيبا في خوفه و رجائه ، فتبدأ ترد على قلبه المشاهدات القلبية و التجليات الروحية ، ويرتقي في معارج الروح عن طريق " الحال" و الوجدان و يصبح الذوق هو طريقه في اكتساب معارفه الروحية و الإلهامات من قبل الله تعالى(بركات،م،70:1990).

-أما بخصوص **الزهد** عند الأمير: فقد شكلت هذه الميزة محطة كبرى في ملامح شخصيته ، حيث يعكس ميل الأمير إلى الزهد و استغراقه في التأمل لنوعية ثقافته ونظرته للوجود ، و تقسيمه للعلاقات الإنسانية وموقفه من الأديان ، كما نجده واضحا فيما ألفه في التصوف ، العقيدة و الأخلاق، كما لم يكن مبذرا في صباه ولا أمثال امتلاكه لسلطة الإمارة ، ولا في أسره رغم كل المغريات التي عرضت عليه ، ولا في هجرته مستأمنا وهو الذي كان يدخل الخلوة أربعين يوما على قطرات من الماء وعلى لوزة وتمرة كل يوم(السبع،ع،154:2000).

وعلى ضوء هذا الموقف ، يبدوا لنا مفهوم التصوف العملي و الجهادي عند الأمير ، فليس التصوف تواكلا ، وتكاسلا ، وتخاذلا ، بل التصوف عنده فتوة و مرابطة وجهاد في سبيل الله (السيد،ف،150:1985). حيث يقول في هذا الصدد :«فإن مقام الكمل هو معطاة الأسباب مع الإعتماد على الله»(عبد القادر،أ،،ج2،الموقف 278،843:1967).

2-أحوال الأمير:

أما فيما يتعلق بأحوال الأمير منها: حال القرب ، و حال المحبة ، وحال المشاهدة.

-**حال القرب**: و القرب من الحق تعالى وهو قرب معنوي ولا يتم ذلك:« إلا برفع حجاب الجهل، فما بعدنا إلا بالجهل، ولا قربنا إلا العلم »، و أهل الله هم :« القريبون من الله تعالى- القرب المعنوي ، المقربون عنده ...الملبون دعوته، المستجيبون إلى طاعته...الداعون إلى معرفته و توحيده على طريق الصوفية، أهل الحقيقة و السلوك و الأحوال...و قطع عقبات النفوس وطي المقامات إلى ذروة العليا»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 136،303:1967).

و من هنا يمكن القول أن توحيد عند الأمير في حال القرب هو توحيد شهودي، أي إفراد القدم عن الحدوث ذوقا و الإعراض عن الحادث، و الإقبال على القديم.

والقرب قربان :

*قرب النوافل: وهو أن يشهد العابد نفسه حال العبادة، بل و في غيرها من سائر الأفعال و الإدراك ،أنه بالله ، أي أنه يشهد الحق تعالى قدرته و سمعه و بصره ، و جميع قواه و أعضاءه الظاهرة و الباطنة ، فلا يرى فعلا له ولا لغيره ولا إدراكا إلا بالله ، وهذا المقام يسمى بقرب النوافل ، ثابت ذوقا ووجدانا.

*قرب الفرائض: وفي هذا المقام يشهد العابد و قواه الباطنة و أعضاءه الظاهرة ، آلة الحق والحق تعالى المصرف لها ، المؤثر بها فيسمع بسمع العبد ، ويبصر ببصره ، ويتكلم بلسانه ، إلى آخر الإدراكات(بركات،م،1990:72).

ومن ثمة يشبه القرب الأول قرب المأخوذ عن نفسه أو المجذوب، الذي لا يشعر بماله و لا يدرك أخذه ، ويشبه القرب الثاني قرب الواصل الممكن في حاله المدرك ، يجري عليه من تصريف إلهي و تجليات ربانية ، ومن الطبيعي « أن من كان قربه قرب النوافل فهو قريب ، ومن كان قرب قرب الفرائض فهو أقرب»(عبد القادر،أ،،ج2،الموقف 1967:869،284).

وهذا الحال الذي يتحدث عنه الأمير من القرب بين العبد السالك وربه ، لا يعني أن يتوقف به الطريق أو ينتهي فيه إلى حد محدود ، فهذا المنهج الصوفي لا نهاية له ، بل هو منهج و طريق مفتوح ، غير متناهي الدرجات ، و السالك فيه دائما مترق عن حاله إلى أحوال أخرى تعلوه و تسمو فوقه ، ومن هنا كلما تدانت بين الأمير و بين المحبوب كما يقول الأمير ، زاده هذا القرب أشجانا و أحزانا ، فلا القرب يشفي ، ولا البعد ينسي ، و كلما ازداد قربا من المحبوب الأول ، زاده هذا القرب عطشا إلى المعرفة الإلهية(بركات،م،1990:72).

-**حال المحبة**: لقد ملأ الأمير قلبه بمعرفة الله ، وهام بمحبته ، هذه المحبة الإلهية التي عرف حلاوة مذاقها و نعمة عطائها ، فلا يستطيع أن يسلوها و أن يبتعد عنها ، هي محبة ملكت عليه قلبه ، فأشعلت فيه نار الشوق لمعرفة الحبيب ، و ازدياد الشوق و المحبة.

و المحبة عند الأمير درجات و مراتب، وأعلى مراتبها محبة الله للمجاهدين ، الذين جاهدوا الجهاد الظاهر ، و الجهاد الباطن في سبيل معرفة الحبيب الأول ، واجب الوجود و هذا الحديث نلتمسه في قوله :« فأي منقبة أعظم ومكرمة أفخم من محبة الله تعالى للمجاهد وهي محبة خاصة بالمجاهدين لها آثار في الدنيا و الآخرة ، كما أن محبة المجاهدين له تعالى محبة خاصة زائدة على محبة المؤمن غير المجاهد لظهور آثار المحبة من الجانبين»(السيد،ف،1985:152) .

وتشبه المحبة عند الأمير النوع الثاني من أنواع المحبة التي أشار إليها الطوسي في كتابه "اللمع" وهو الذي يتولد من نظر القلب إلى غناء الله و جلاله وعظمته وعلمه وقدرته ، وهذا النوع من المحبة هو حب الصادقين و المتحققين ، أما عن شروط هذا النوع فهي هتك الأستار وكشف الأسرار وهي أيضا محو الإرادات و احتراق جميع الصفات و الحاجات

، ويعجب الأمير عبد القادر في هذا الصدد من صبر هؤلاء المحبين على أسرار المحبة الإلهية التي اؤتمنوا عليها ، بحيث أنه حين يبلغ السالك هذا المستوى من المحبة و العشق الإلهي ، الذي يستوي عنده «شهيد المعترك و شهيد المحبة اللذان يستتر عنهما الوجود المجازي و الحياة الفانية ، ويحصلان على الوجود الحقيقي و الحياة الباقية ،بخلاف غيرهما من الأموات»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف258، 118:1967).

-**حال المشاهدة** :وهذا الحال من المشاهد قد حققه الأمير ، بعد أن مارس فنون المجاهدة ، وما كان ليطمئن إلى صدق إيمانه ولا بتحقيقه لهذا الحال ، فالمشاهدة هي تحقيق الإيمان بالمعاينة، وهي ما عناه الغزالي في مؤلفاته الصوفية (بعين اليقين) الذي يرتفع مستواه فوق درجة الإيمان الذي هو علم اليقين .

وعليه فالمشاهدة هي درجة العبادة الله بالإحسان ، ولذلك لا يطمئن الأمير الإطمئنان الكامل إلا بالشهود ، وهذه الحالة هي النوع الثالث من أنواع الهدى ، التي أطلق عليها إسم (الأعظم هدى) ، بحيث لا ينال هذه المرتبة إلا إذا حصلت له الهداية بالكشف و العيان(بركات،م،75:1990).

-المكاشفات الصوفية:

إن المكاشفات هي ثمرة التجربة الصوفية ، فإذا كانت العلوم الحسية مستمدة من الحس ، وإذا كانت العوم العقلية مستمدة من العقل ، فإن المعارف الكشفية مستمدة من التجليات الإلهية ، فهي علوم إلهامية ذوقية ، تلقي في القلب إلقاء ولا يستدل عليها من العقل ولا تستنبط من الفكر ، وهي نتيجة المجاهدة و الرياضيات القلبية للسالك ، ولا تكون إلا بعد قطع مراحل كثيرة في الطريق الصوفي ، ومعظم هذه المكاشفات الصوفية تتصل بالذات الإلهية وحبها والعشق و الفناء فيها ، و الهيام بها (عبد القادر،أ،ج1، 79:1967)، ولهذا يقول الأمير مستخدما رموز التصوف« إن في الوجود معشوقة غير مرموقة ، الأهوية إليها جانحة ، والقلوب بحبها طافحة ، والأبصار إلى رؤيتها طامحة ، يطير الناس إليها كل مطار ، ويرتكبون الأخطار...ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد».

بهذه العبارة أطلعنا الأمير على غاية الرحلة الصوفية ، فإذا هي هذه المعشوقة التي تهواها القلوب ،وتطمح إلى رؤيتها الأبصار ، ويتسارع إليها الناس من كل حدب وصوب ، فقد كثر السالكون وقل الواصلون الذين صبروا في مجاهداتهم الصوفية ، من التقوى إلى الإستقامة ، فإلى الكشف و الإطلاع .

وقد أطلعنا الأمير على مكاشفته ووصوله ، وعلى درجة منزلته بين الصوفيين بقوله :«فاعتمدت على الواحد ،لا ألوي على أحد ، فممرت في طريقي على فرق من فريقي : فرأيتهم بين سادم باهت ، لا هو بالحاصل ولا الفايت ، وبين حاير واقف، إلتبست عليه المواقف ، وبين غريق في لحج تلك البحار ، وتائه في تلك المغاور و القفار»(مفتاح،ع،11:2005).

ويشبه هذا ما يذكره الإمام الغزالي في أحد مؤلفاته حين يقول :« فانقطاع الخلق عن الحق و بوقفهم مع الخلق ، ومع أنفسهم ورؤية أفعالهم ، وانحرافهم على العقيدة الصحيحة ، بإختلاف أهويتهم إلى نفوس البشر مجبولة علية ، وحب الجاه والمال و الدنيا و الرياسة و الشهرة ...وغلبة الشهوات النفسانية على قلوبهم»(السيد،ف،160:1985).

ومن ثمة فالوصول الذي يعنيه الأمير هو أعلى درجات التوحيد وهو التوحيد الشهودي ، وفيه يكاشف بالحقائق الإلهية مكاشفة قلبية ، وهو في هذا المقام ليس في حاجة إلى الإستدلال على الذات الإلهية، استدلالا منطقيا عقليا ، قوامه البرهان الفلسفي ، وإنما إلى المشاهدة القلبية التي تفيض عليه منة من الله تعالى لا يدعي فيها الصوفي أنه توصل إليها بعقله و فكره و نظره أو كسبه ، بل فاضت عليه من محض العناية الإلهية.

ومن هنا يختلف الصوفية أهل الإلهام و المكاشفة عن العلماء و الفلاسفة أصحاب النظر، وهذا لا يعني طبعا أن الصوفية يرفضون العقل ، أو لا يوافقون على الإستدلالات العقلية البرهانية ، التي تؤدي إلى معرفة الله ، ولكن هذا المستوى من الإدراك يعرفه كل صوفي في بداية سلوكه ، بل يعرفه كل من أوتي فطرة عقلية قوية ، ولكن الصوفي يتجاوز هذه المرحلة إلى مستويات من المعرفة الأخرى ، تكون فيها الحقائق المستدل عليها في أول الطريق ، مشاهدة ومعاينة بحاسة القلب ، وبإدراك مباشر يشبه إدراك الحواس في مباشرتها لموضوعاتها ، مع الفارق الشاسع بين الحواس و القلب ، في نهاية الطريق أو في مرحلة الوصل ،ولقد وصل الأمير عبد القادر بفضل الله تعالى ومنته عليه ، إلى هذه الذات المطلقة التي يكنيها بالمعشوقة المحبوبة وحصل عندها على رتبة المنعم عليهم من الصديقين و الشهداء الصالحين(بركات،م،81:1990).

ويبدأ الأمير طريق العودة الأرضية ، بعد أن عرف الحقيقة الأزلية الأبدية ،وهي حقيقة واجب الوجود المطلق التي تمثلها الحقيقة الإلهية ، وهو لا يستطيع أن يعبر عن تجربته هذه لأنها تجربة روحية ،ولذا خاطب أصحابه بقوله : « يا قوم ،لا تعجلوا بالعتب و اللوم، أرأيتم لو جاءكم عنين عدم حاسة الذوق وقال : عرفوني لذة الجماع ، بم كنتم تفهمونه علم ذلك و تعلمونه؟ فقالوا: لا سبيل إلا الذوق لما هنالك، فقلت لهم: وهذا من ذلك»

وتبعا لهذا يمكن القول أن الأمير لم يكشف عن مشاهداته و مكاشفاته بأكثر من هذا،واكتفى بلمحة خاطفة و الإشارة المقتضبة و الرمز الغامض ، ولمعرفة أسباب ذلك لابد من الإستعانة بكتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل لإبن خلدون حيث يقول :« أما علم المكاشفة الذي هو ثمرة المجاهدات و نتيجتها فلم يكن سبيل إلى الخوض فيه ، وقد حذر القوم-رضي الله عنهم-من إيداعه الكتب أو الكلام في شيء منه إلا ما يدور بينهم في مفاوضات على سبيل الرمز و الإيماء تمثيلا و إجمالا ولا يكشفون لغيرهم شيئا من معانيه علما بقصور الإفهام عن احتمالهن ووقوفا مع حدود الشريعة في الأخذ بما لا يعني، و أدبا مع الله في صون أسرار الربوبية ، وإن صدر عن أحد منهم كلمة كم ذلك سموه شطحا»(ابن خلدون،ع،49:1959).

وعلى ضوء هذا يمكننا فهم حكمة من حكم ابن عطاء الله السكندري حين يقول : « العارف إذا أمثار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له ،لفنائه في وجوده و انطوائه في شهوده»(بركات،م،82:1990).

ومن ثمة يتضح لنا أنه إذا أردنا تبيان و استجلاء موقف الأمير من علم المكاشفة، استجلاء تاما وتساءلنا عن طبيعة الكشف التي وصل إليها و عبر عنها ، فسنجده يجيبنا في الموقف الثالث عشر من مواقفه حين يقول :

« وقد أمرني الحق تعالى بالتحدث بالنعم (نعم الرؤيا و الواردات الإلهية)، بالأمر العام لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- بقوله : «وأما بنعمة ربك فحدث»، لأن الأمر له –صلى الله عليه وسلم- أمر لأمته ، إلا ما ثبت اختصاصه به ، وأمرني بالخصوص مرارا ، بإشارة هذه الآية الشريفة»(عبد القادر،أ،ج1،48:1967).

وعليه فإنه بسبب تكرار الأمر الإلهي إلى الأمير بالتحدث بالنعم نجده لا يخبر أحدا بشيء من تلك المكاشفات و المشاهدات إلا لمن وجد لديه الإستعداد الروحي لقبولها ، ويشجعه هذا الإخبار في خوضه للتجربة الصوفية و تحمل مشقاتها وصعابها ، استنادا للآية الكريمة : « وأما بنعمة ربك فحدث»(سورة الضحى،الآية11).

وفي هذا الصدد يؤكد الأمير كذلك في كتابه المواقف في قوله أن « هذه الآية الكريمة قد ألقيت علي بالإلقاء الغيبي مرارا عديدة لا أحصيها ، ولا يخفي ما قاله فيها أهل التفسير ، ومما ألقي علي فيها : أن المراد بالنعمة هنا نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى ، والعلم بما جاءت به الرسل –عليهم الصلاة والسلام- من المعاملات و الأمور الغيبية ، ولا شك أن هذه النعمة أعظم النعم ، وإطلاق النعمة على غيرها مجاز بالنسبة إليها ، والمراد بالتحدث بها إفشاؤها وبثها لمستحقيها المستعدين لقبولها،إذ ما كل علم يصلح لكل الناس، ولا كل الناس يصلح لكل علم بل لكل علم أهل ،لهم استعداد لقبوله ، وهمة و التفات إلى تحصيله»(مفتاح،ع،221:2005).

وقد حذر الأمير دائما من كشف العلوم التوحيدية ، التي يجب أن تبقى سرا من الأسرار الأمنية بين العبد وبين ربه إلى الموت ، ويعلل ذلك بقوله :« في إذاعة الأسرار الربوبية لغير أهلها ضرران : ضرر راجع إلى المذيع ، وضرر راجع إلى المذاع له ، فالمذيع ربما رمي بالكفر و الزندقة ، وربما أفضى الأمر إلى قتله ، وربما وصل الشر إلى أصحابه ومن ينتسب إليه ، والمذاع إليه ربما افتتن أو فهم الأمر على غير وجهه ، فضل ، وكتب القوم مشحونة بذم هذا ، والنهي عنه»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 158،392:1967). ويخشى الأمير كذلك أكثر ما يخشى الفقهاء من علماء الظاهر، والعامة من الناس الذين يحملون الشيء على غير محمله في قوله : « بأنه إن سمع هذا الكلام فقيه قح محجوب بنقله و عقله ، نسبتي إلى ما لا ينبغي مما أنا بريء من سوء العقيدة و المروق من الدين ، وإن سمعه عامي ، فلربما كان بليد الطبع جامد الذهن، فيحمله على غير المراد به ، فيضل و يزيغ عن الصراط المستقيم»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 298،945:1967).

كما يخشى الأمير بعض المشايخ من الصوفيين وعلى مريديهم من أهل زمانه إفشاؤهم لبعض الأسرار الإلهية يتهمهم بالجهل ، وبعدم تجربتهم الروحية الذوقية و بتطاولهم على الجناب الأعلى الإلهي ، ويدعوهم إلى صون هذه الأسرار، لكي يتعلم الصوفي « الصبر المعارف الإلهية و الأسرار الربانية ، بعدم إذاعتها لغير أهلها»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 189،413:1967).

كما يشير الأمير في هذا السياق إلى أن بعض هذه الأسرار بتداولها الصوفية مع أبناء جنسهم و أهل جلدتهم المؤمنين بهم م بكلامهم ، فلا يطالبونهم بدليل، ويلوح الأمير هنا بالمعارف الإلهية التي منى الله عليه بها ، ويخبرنا في المواقف بأن الله تعالى تفضل عليه بمعرفة السر الإلهي ، ولكن بعد أن أخذه عن نفسه وقربه إليه حتى « قيل لي مثل قوله للحلاج، غير أن الحلاج قالها ، وأنا قيلت لي ، ولا أقولها»(عبد القادر،أ،،ج1،الموقف 7،38:1967).

و كخلاصة يمكن القول أن التصوف عند الأمير عبد القادر هو أساس تراثه الموروث و الأدب و العلم كلاهما يرتبطان ارتباطا بعلم التصوف، وهذا الأخير نجده قد ارتبط بحياة الأمير ارتباطا شديدا، حتى يقال المرء وهو يتصفح حياته أنه خلق ليكون صوفيا.

قائمة المصادر و المراجع :

1-القرآن الكريم

2-الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد،ج1،ج2،دار اليقظة العربيّة،ط(2)،س 1967.

3-بركات محمد مراد ،الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، دار النّشر والتوزيع، د (ط)، س 1990.

4-د.فيصل بدير عون، التصوف الإسلامي الطريق و الرجال، مكتبة سعيد رأفت،بدط ،1983.

5-د.زكي مبارك،التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق،المكتبة العصرية،ط2006.

6-أبو نصر السراج الطوسي،اللمع في التصوف، تحقيق د.عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور،نشرة نيكسون، بدط ،1914.

7-د.عبد الحليم محمود، قضية التصوف، دار المعارف، ط3، 1988.

8-عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف،الرسالة القشيرية، ج1، مكتبة محمّد علي صبيح، د(ط)،س 1996.

9-أبو حامد الغزالي،إحياء علوم الدين، تحقيق د.بدوي طبانة، دار المعارف، 1957.

10-فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا المؤسسة الوطنية للكتاب، د(ط)، س 1985.

11-زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق، المكتبة العصريّة، ط(1)، س 2006.

12-عبد الرزاق بن السبع،الأمير عبد القادر الجزائري و أدبه، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، ط1، س2000.

13-عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف، ،مؤسسة الأمير عبد القادر،ط1،س 2005.

14-عبد الرحمان ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، نشره، وعلّق عليه الأب عناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، د(ط)،س 1959.